التفسير الأدبي وفكرة التجديد

أ. باب العياط نورالدين*

في حياة العرب ظل الشعر والنثر جهدا بشريا متكامل البناء في الجاهلية والإسلام ، وظل القرآن ولا يزال نصا لغويا يتميز بالأدبية التي تعني أساسا بلاغة أسلوبية متميزة ، تكشف عن إمكانات فريدة في التعبير والتصوير ، يتحدى البشرية في إعجازه وخواصه الفنية ، وعلى البون الشاسع الذي بين الشعر والنثر من جهة والقرآن الكريم من جهة أخرى بحكم طبيعة ما يحسنه الناس في الأول ، وطبيعة ما أنزله الله من كتاب أزلي في الثاني ، يظل البيان العربي شامخا بهما على اختلاف المصادر وتفاوت القيمة الفنية .

1- خصائص النص القرآني

إن أيّ نصّ يأخذ أهمّيته من النّص نفسه ، ولما كان القرآن الكريم من أجلّ النّصوص التّي اشتملت على معارف إنسانية عظيمة ومعالم حضارية واضحة، فإنّ تفسيره يأخذ أبعادا هامّة وبالغة من عموم النّصوص الأدبية نثرا وشعرا، بل إنّ الكمّ الهائل من التّفاسير التّي تناولت القرآن الكريم عبر مدّة ليست بالقصيرة ، يتناسب وهذه الأهميّة روحا ومضمونا . غير أنّ مسألة التّفسير إلى اليوم وغاياتها في الوصول إلى مراد الله تبقى محدودة ومتجددة

محدودة كون كتاب مثل القرآن الكريم ، هو نصّ إلهيّ نزل به الوحي من السّماء على الأرض على صاحب الرّسالة صلى الله عليه وآله وسلم ، ومن هنا كان له خصائص تميّزه عن غيره .

- فهو صادر عن الغيب .

---

* أستاذ مساعد جامعة حسيبة بن بوعلي – الشلف–

– ولا يتحدّد عمله أو أثره في توجيه الحياة المعاصرة لنزوله وفقط، بل يمتّد إلى الإنسانية كلّها ،فهو صالح لكلّ زمان ومكان، مما يقتضي أن يكون تركيبه من نوع خاص يلائم هذه الصّلاحية ، ولا يملك القرآن من خصائص بيئته الأولى إلا الظّواهر اللغوية،باعتباره نزل بلغة العرب وأسلوبها العربي.

– كما أنه يختلف عن الأنواع الأدبيّة التي ألفها العرب،حتّى عدّ العرب الكلام ثلاث أقسام : شعر ونثر وقرآن ، ويكفي أن يكون " التّفسير أو الدّراسات القرآنية عموما في الحضارة الإسلامية هي البيئة الطبيعيّة التّي نضجت في أحضانها كلّ فروع الدّراسات اللغّوية والبلاغيّة " ([1])، دليلا على ما أضافه القرآن لموروث الثّقافة العربية و الإسلامية.

– ثم انفراده عن باقي الكتب الدّينيّة السّابقة عليه في أساليب عرض الأفكار و التّشريعات وصياغتها فلم يلتزم التّرتيب الموضوعي أو النّوعي ، ولكنّه "مزج الفكرة الواحدة بغيرها مزج الحياة التي نزل على أصحابها ، مصوّرا لها ولا شكّ أن المجتمع تتغير حياته تغيرا مطّردا،فلا يلبث على حال واحدة ولا يجمد على صورة محددة" ([2])، وهذا التّغير المطّرد يقتضي التّدرج في التّشريع بما يحقق له قيادة الحياة والسّيطرة عليها.

أما التّفسير قراءة ، فهو قراءة بلغة المفسّر،وثقافته،وبيئته، وانتمائه فهو : "لا يفهم من النّص إلا ما يرقى إليه عقله، وبمقدار هذا يحتكم في النّص ويحدّد بيانه... ولا يستخرج منه إلا قدر طاقته الفكرية واستطاعته العقلية " ([3]) ، وهو إلى اليوم لم يستطع استيفاء معاني القرآن كاملة ،حتى وإن تناوله بالدّراسة من أوّل سورة البقرة إلى آخر سورة الفاتحة ، ومن ثم كانت محدوديته.

متجدّدة : كون مناهج التفسير وألوانها، اختلفت وتنوّعت حول نص واحد، مما يوحي بأن القرآن الكريم معجز وخصوصيّاته الفريدة غير خصوصيّات النّصوص الأدبية، بل إن الكلمة والتّي تشكّل الوحدة الأساسية في اللّغة ، "لا تعطي دلالتها القرآنية بمجرد الرّجوع إلى دلالتها المعجميّة التي تسع لمعان عدة لا يتقبلها النّص .. ومعروف لدارسين اللغة، أنّ الألفاظ تختلف استعمالاتها من عصر إلى عصر ومن بيئة إلى أخرى، ولا وجه أن نحمّل كلمة في أي نصّ دلالة لا يعرفها عصره ومجتمعه.." ([4])، لذا تشعّبت مناهج المفسّرين وتنوّعت عبر تطوّر المجتمعات والأمم، فما كان يقرؤه العربيّ في بادية الصّحراء ويعيه، ليس نفسه ما سيقرؤه رجل اتّصل بثقافات الأمم المفتوحة ، ونبع من حركة الترجمة واتّساعها "..فانضواء شعوب غير عربيّة

تحت لواء الإسلام، تجهل لغة القرآن. هذه الشّعوب بحاجة لمعرفة دينها ومبادئه .. ومنزلة القرآن من حيث هو مرجع للمسلمين في مختلف شؤونهم ،جعلت تدرّج الحياة ينعكس جليّا على القرآن، ويوجه التّفسير وجهات متعددة استلزمتها متطلبات الحياة وضرورات التجديد " (5)، فكان كسب المعرفة أوسع ومتشعب عما كان يعرفه المجتمع العربي إبّان نزول القرآن ، فلا عجب أن يتأثر التّفسير القرآني بأسباب التطور وعوامله ، وتتعدّد مناهج المفسّرين تبعا لتعدّد المناهج في كسب المعرفة ، وهذا التعدّد هو عينه التّجديد.

والدّارس لتاريخ التّفسير ، يلحظ ذلك الاختلاف في تناول التّفسير للنّص القرآني، وكيف انتقل من الأثر إلى الرأي إلى البيان إلى التّاريخ والعلم ، وغيرها من المناهج التّي لم تكن قد ظهرت ساعة نزول الوحي،و لكن تشكّلت عبر مراحل تطوّر العقل، واقتضى ذلك أن يؤخذ فهم القرآن الكريم بها،حتّى يكون الوعي به قريب ومتزامن معه ، فهو فريد عن غيره متجدّد في ذاته ،كما كان التّفسير متنوّع في مناهجه ، واحد في تناول النّص القرآني .

وبالإضافة إلى مشكلة التّفسير كآلية للقراءة، فهو أعظم مشكلة كتراث ليصبح قضية تاريخ وعقيدة.قضية تاريخ التفسير نفسه بمناهجه التي عرضها المتقدمون،فاتخذها المتأخرون غلا في أعناقهم فقد توسع المتقدمون في التفسير إلى حد كبير، جعل من جاء بعدهم لا يلقون عنتا ولا يجدون مشقة في محاولتهم لفهم كتاب الله ،وتدوين ما دونوا من كتب ، فمنهم من أخذ كلام غيره وزاد عليه ومنهم من اختصر ومنهم من علق الحواشي وتتبع كلام من سبقه ، وهكذا لم يغير المتأخرون من منهاج المتقدمين ، فـ" التفسير الكبير الذي ألفه الشيخ الطنطاوي جوهري إنتاج علمي شبيه بدائرة المعارف ، ولا ينطوي على اقل اهتمام بتجديد منهج ، أما تفسير الشيخ رشيد رضا الذي اتبع فيه إمامه محمد عبده فلم يضع هو الأخر هذا المنهج ، فقد كان همه أن يخلع على المنهج القديم صبغة عقل جديد" (6) .

وقضية عقيدة تجر المفسر إليها جرا ظاهريا كان المفسر، أو باطنيا أو من أصحاب التأويل . والمتصل بالدراسات القرآنية يدرك جيدا ما حشيت به كتب التفسير من تأويلات ، جاءت حصيلة الصراعات المذهبية والسياسية والتاريخية التي تعرض لها المجتمع الإسلامي ، "فتفاوت المفسرون تبعا لتباين أذواقهم و اختلاف عقلياتهم وأوضاع مجتمعاتهم وأنماط شخصياتهم ،في ذلك العالم الواسع الذي امتد من

أقصى المشرق إلى أقصى المغرب ، وتقاسمته ألوان من عصبيات مذهبية وسياسية وإقليمية ، فاقتضى هذا بطبيعة الحال أن يتوارد على القرآن مفسرون من أنماط شتى وعصبيات مختلفة ." ([7])

2- أهمية التفسير

أمام مشكلة التفسير كمنهج وموروث ، تبقى أهميته وضرورته ملحة حقا ، وهو بتعبير الأصبهاني " أشرف صناعة يتعاطاها الإنسان " ([8])، لأن موضوع هذه الصناعة كلام الله الذي هو منبع كل حكمة ، وخلاصة تعاليم السماء ، و المفسّر اليوم مطالب في ضوء العلوم الحديثة أن ينهض بهذا العبء ، ليقدم القرآن الكريم بصورة تليق بمقامه ، وتخلع عنه ما علق به من خرافات الذين تصدوا إلى قراءته وتفسيره ، فـ"جمهور كبير من الدراويش وجيشا من الجهّال يصر على اعتقاده بأن الأرض ساكنة تحملها العناية الإلهية على قرن ثور، وهذه الفكرة الدارجة قد تؤثر في توجيه التاريخ أكثر من الفكرة العلمية ، لأنها تستند إلى خرافة مفسّر غير موفق يرى الأرض على قرن ثور " ([9]).

كما أن أهمية التفسير تضاعفت أيضا بعد أن اختلط العرب بغيرهم ، وتقادم الزمن بهم ودخل فيهم من ليس منهم ، حتى فقدت ملكة البيان ، وضاعت مميزات العروبة وأصبحنا في حاجة إلى إعادة مناخ الفهم الفطري ،وإشاعة حياة اللغة ، لقد "تعربت الشعوب الداخلة في الإسلام، فاتسع المجال اللغوي للعربية في القرن الأول للهجرة ، من المشرق الأسيوي إلى خرسان وما وراء النهر إلى المغرب الإفريقي حتى ساحل المحيط الأطلسي...ومن حيث وقف التاريخ مبهورا يرصد حركة التحول اللغوي لهذه الشعوب، ويرقب نفوذ العربية إلى المناطق التي عصيت من قبل على الغزو اللغوي الفارسي واليونان والرومان، وقف حملة القرآن يشفقون على لغته من هذه المخالطة المباشرة ، ويرهقون سمعهم لالتقاط ما لم يكن منه بد من شوائب العجمة وعثرات اللحن" ([10]).

كان التفسير في بدايته الأولى يستهدف إلى فهم مدلول الله ، ذلك المفهوم وإن بدا واضحا ميسرا للكثير من الناس ، إلا أنه لم يبق على وضوحه بسبب تعقد اللفظ من حيث المعنى وازدياد الفاصل الزمني كما أسلفنا ، مما نتج عن ذلك تراكم هائل من القدرات والتجارب والأحداث والأوضاع والتي تحتاج تحديد موقف الإسلام منها ، وتأطيرها فيما يعرف بالنّظرية ، خصوصا وأن الواقع الإسلامي القائم في حاجة إلى

تنظيم نفسه في مواقف و نظريات أمام نظريات العالم الغربي الحديث الذي يملك رصيدا عظيما وثقافة متنوعة في مختلف مجالات المعرفة البشرية ، العالم الإسلامي اليوم مجبرا على استنطاق نصوص الإسلام قرآنا وسنة وتراثا ،والتوغل في أعماق هذه النصوص ،ليصل إلى مواقف الإسلام الحقيقية، ولكي يكتشف نظريات الإسلام التي تعالج المواضيع التي عالجتها التجارب البشرية في شتى مناحي الحياة .

فالمنهج إذن هو الذي يحسم تقرير مصير أثر القرآن ، بين أن يبقى محفوظا بين الدفتين يعيننا المفسر أحيانا على معرفة معاني مفرداته ،ويقصر أحيانا ، فنقصر معه،وبين أن ينتقل القرآن بمقاصده وأهدافه إلى الحياة كلها في كل ميادينها ،في بناء المجتمعات و إعمار الأرض.

هذه المسائل وغيرها أصبحت تمثل حدا فاصلا بين القديم والجديد في مناهج التجديد.

3- التفسير وفكرة التجديد

ظهر هذا الحد الفاصل منذ ظهر رجال الإصلاح في الفكر الدّيني ، وأولوا مناهج التفسير ما تستحقه من عناية واهتمام ، ويعد بحق السيد جمال الدين الأفغاني (1839-1897م) رائد التجديد في مناهج التفسير ، كما كان رائدا في منهجه الإصلاحي ككل.

لقد تفطن بوضوح إلى تلك المناهج التقليدية التي انصرفت عن الأخذ بروح القرآن ،والعمل بمضامينه ومعانيه إلى الاشتغال بألفاظه وإعرابه، لقد حاول أن يعكس رؤيته الجديدة من خلال ما يفسره من آيات الكتاب الكريم في صحيفته (العروة الوثقى) ، فركز اهتمامه في سبعة عشر آية فقط استطاع تفسيرها قبل إيقاف إصدار العروة الوثقى في عددها الثامن عشر بقهر من حكومة بريطانيا ركز اهتمامه على الآيات التي تتصل بأسرار نمو الأمم أو ضعفها وسقوطها.

وكان أهم ما مميز منهج الأفغاني في تفسيره العروة الوثقى:

- بيان سنن الله في الخلق ونظام الاجتماع البشري وأسباب رقي الأمم وتدينها .
- بيان أن الإسلام دين سيادة وسلطان وجمع بين سيادة الدنيا وسعادة الآخرة .

- وأن المسلمين ليس لهم جنسية إلا دينهم فهم إخوة لا يفرقهم نسب أو لغة ولا حكومة ([11]).

لقد قام منهج الأفغاني على أساس أن علماء الإسلام في كل عصر لا يجب عليهم إلا التقيد بنصوص القرآن والسنة ، أما التفسيرات المتنوعة و المختلفة فليست لها قداسة الكتاب والسنة يمكن الاستئناس بها أو تجاوزها ، و " النظر مباشرة في الكتاب و السنة واستنباط ما نريد منهما في ضوء استنباط الأصول وقواعد اللغة والبلاغة.." ([12]) ، لذلك ركز دعوته الإسلامية على قاعدة النص القرآني وحده ، وهي القاعدة الأساسية الكفيلة بقلع ما رسخ في عقول العوام ومعظم الخواص من فهم بعض العقائد الدينية ،والنصوص الشرعية على غير وجهتها في مسألة القضاء والقدر ، والتي ناقشها الأفغاني مناقشة مستفيضة ، رأى أن عقيدة القضاء والقدر لا علاقة لها بمذهب الجبر الذي جمد حركة المسلمين في التاريخ ، وأركنهم إلى ما هم عليه من تخلف كما كانت سائدة في اعتقاد كثير من المسلمين .

الحديث عن حركة الأفغاني قد لا يتسع له مثل هذا البحث ، ولكن يكفي الإشارة إلى أن حركة التجديد في التفسير أخذت نواتها الأولى في ما كان يكتبه ويؤسسه الأفغاني في جريدة العروة الوثقى ، والتي سرعان ما توقفت عن الصدور، ليتجه الأفغاني بعدها إلى كفاحه الاجتماعي والسياسي مستغرقا فيه حتى وفاته ، وانفصل عنه تلميذه الشيخ محمد عبده والذي سيعطي بعدا آخر في حركة التجديد في التفسير تجسد في مدرستين ذات اتجاهين مختلفين:

الاتجاه الأول: مدرسة التفسير الاجتماعي (محمد عبده)

في الوقت الذي اتجه فيه السيد جمال الدين الأفغاني إلى العمل السياسي، وأفنى حياته كلها لأجل العمل على تغيير اتجاهات السياسية العربية والإسلامية في ظل هجمة الاستعمار بكل أنواعه اتجه تلميذه محمد عبده إلى الجانب الفكري والاجتماعي في عملية الإصلاح ، وقد رأى بحدسه القوي أن الموروث الفكري والثقافي للأمة الإسلامية لم يعد قادرا أمام حالة التردي وغلبة الاستعمار أن يجيب على كثير من هموم وانشغالات الأمة ، فضلا عن أن يحركها في اتجاهها الذي رسمه الإسلام المحمدي الأصيل ، فجاءت دعوته تستهدف تغيير اتجاه السلوك والأخلاق العامة باعتبارها العوامل الأساسية الموجهة للنشاط الإنساني من خلال إعادة قراءة هذا الموروث ، وتوجيه فيما يخدم الواقع الإسلامي ، فبدأ بدراسة التفسير لاعتقاده

أن القرآن الكريم هو مصدر كل شيء يعود إليه المسلمون ، والأحرى دراسة ما حفلت به كتب التفسير التقليدية لتخليصها من كل ما حشرت فيه من القصص الإسرائيلي ، والأحاديث الضعيفة والموضوعة ، والنزعات المذهبية والآراء الكلامية الجافة ،وتوجيه التفسير إلى اللون الأدبي والاجتماعي .والحق أن مدرسة محمد عبده لها الفضل في هذا اللون التفسيري ،"هذه المدرسة التي قام زعيمها ورجالها من بعده بمجهود كبير في تفسير كتاب الله تعالى وهداية الناس إلى ما فيه خير الدنيا والآخرة .." ([13])

وغاية المنهج الذي دعا إليه ، وسار عليه تلامذته من بعده ، أنه جعل من التفسير مقاصديا يلامس مقاصد القرآن العليا ويتحرك معها،بدلا من أن يبقى متعثرا بين الألفاظ والأحكام المجزوءة فقال :" التفسير الذي نطلبه هو فهم كتاب الله من حيث هو دين يرشد الناس إلى ما فيه سعادتهم في حياتهم الدنيا والآخرة ، فان هذا هو المقصد الأعلى منه وما وراء هذا من المباحث فتابع له ووسيلة لتحصيله .." ([14]) . فالواجب في التفسير بحسب الإمام عبده ".. ذهاب المفسر إلى فهم المراد من القول وحكمة التشريع في العقائد و الأحكام ، فالقصد الحقيقي هو الاهتداء بالأحكام " ([15]). ومن أسس منهجه أيضا في التفسير والجديد الذي أضافه ، هو اعتبار القرآن الكريم جميعه وحدة متماسكة، فهم بعضه متوقف على فهم جميعه.. و اعتبار السورة كلها أساسا في فهم آياتها، واعتبار الموضوع فيها أساسا في فهم جميع النصوص التي وردت فيه.." ([16]) .

إن دعوة محمد عبده إلى التجديد لم تكن تستهدف تغيير مقررات إسلامية أو تعديلها ،وإنما اتجهت إلى السلوك الأخلاقي عبر دراسة القرآن بمنهجية جديدة ، ارتكزت في الأساس على المنهج التمثيلي ،وهو تأويل الآيات القرآنية التي يبدو ظاهر معناها غريبا يستبعده العقل،كما في الآية الكريمة {وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَواْ مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَاسِئِينَ} ([17]). إن المسخ لم يقع على أجسامهم ،بل على قلوبهم فبقوا أناسا لهم نفوس القردة وإنما يكون المراد مجرد تمثيل . وكان المنهج التمثيلي من أهم دعائم مدرسة الاعتزال من قبل،وخاصة عند الزمخشري والذي استرشد به محمد عبده ، فرأى " أن ليس بضروري أن يكون هذا التمثيل واقع يستند إليه ولا سيما إذا كان تمثيلا لا يحكي قصة كاملة .. ولعل ماعزا الشيخ عبده إلى استعمال المنهج التمثيلي في فهم النص ، اعتقاده أن القرآن هو مصدر تشريع

ومن ميزة هذا المنهج انه بسط أسباب الاحتكام في الحياة الإنسانية وتوجيهها.. " ([18])، كما وظف المنهج التاريخي في تفسير النص،ذلك الذي يصل حاضر الحياة بماضيها،ويبحث عن أسباب التطور الاجتماعي في حياة الأمة، وغاية اختيار محمد عبده لهذا المنهج ،محاولته التجديدية الرامية إلى ربط القديم ودراسته بالمستجدات في الواقع ،لتجعل النص القرآني يتحرك من الماضي إلى الحاضر مجيبا وحاكما .

كما أن مدرسة محمد عبده نهجت بالتفسير منهجا أدبيا أيضا ،كشفت عن بلاغة القرآن وإعجازه ، وأوضحت معانيه وحثت على دراسة اللغة ألفاظا وما تعرضت له عبر التاريخ من تطور دلالتها ، وقد استفاد الشيخ محمد عبده من مفردات الراغب ودرسه للغة" ([19])، وترسم خطاه في منهجه التفسيري الشيخ رشيد رضا و محمد مصطفى المراغي وشيخ الأزهر محمد شلتوت.

الاتجاه الثاني : مدرسة التفسير الأدبي (أمين الخولي)

"القدماء فيما يقولون عن حياة العلوم الإسلامية قد قسموها ثلاثة أقسام: علم نضج واحترق وهو النحو والأصول، وعلم نضج وما احترق وهو الفقه والحديث ، وعلم لا نضج ولا احترق وهو علم البيان والتفسير... وشاء الله أن يكون علم البيان وعلم التفسير من أول ما أقوم على خدمته ... وقد تقدمت إلى هذه المحاولة تحت الشعار الذي اتخذته لنفسي وهو:" أول التجديد قتل القديم فهما" ([20]).

بهذه العبارة يبدأ الأستاذ أمين الخولي عرض منهجه في التفسير ، فقدّم لمادة التفسير في دائرة المعارف، وهي حصيلة محاضراته في كلية الآداب بمصر،وكانت محاولة جيدة في تأصيل فيما عرف بـ"مدرسة التفسير الأدبي"، و أمين الخولي" شخصيته جمعت بين الاتصال بالحضارة الغربية ومناهجها في الدراسة العربية والدينية فقد تخرج من مدرسة القضاء الشرعي وارتحل إلى أوروبا فأتقن الإيطالية والألمانية ... وألم بالحركة الإستشراقية ومناهج أصحابها في الدراسة ، وما كاد يستقر به الأمر أستاذا في الجامعة المصرية حتى تولى دراسة البلاغة العربية والتفسير ثم الأدب المصري وكان شديد الإعجاب بمحمد عبده فتأثر به وسلك سبيله في الدعوة إلى تجديد حياة التفسير القرآني" ([21])

وبتأسيس الجامعة المصرية اتجهت الدراسة إلى علم التفسير ، في وقت كان الأزهر وحده ينفرد بالدراسات الدينية ، ودخلت مناهج اللغة والأدب وعلم النفس في فهم النص القرآني وتفسيره على غير ما

كان مألوفا في الأزهر ، وباستقرار أمين الخولي أستاذا في الجامعة ومن خلال محاضراته ، وإشرافه على نخبة من الطلبة آنذاك قد تم توجيههم إلى التفسير واللغة ، يكون قد أرسى معالم المدرسة الأدبية وتأصيلها حتى إذا استوى منهجه الجديد ونضج واستقام عوده ، توّجت رؤيته في التجديد بكتابه القيم " مناهج وتجديد" (22)، شمل خلاصة مدرسته الأدبية في التفسير .

إن مدرسة التفسير الأدبي انطلقت على أساس النظر في المركبات التي تخلق العلاقة بين الألفاظ ، اعتمادا على موروث اللغة من نحو وصرف وبلاغة لكن – وهذا ما أثارته هذه المدرسة – أن لا يكون الاعتماد على علوم اللغة مقصود بذاته، ولا لون يلون التفسير كما هو شأن التفاسير التقليدية ، بل على أساس أنها أداة بيان المعنى وتحديده لا غير. فالنظرة البلاغية مثلا لا يراد بها تطبيق اصطلاح بلاغي معين ، ثم ترجيح صورة بيانية معينة أو إلحاق الآية من النص القرآني في قسم من أقسام البلاغة دون قسم ، بل أن النظرة البلاغية المطلوب هي الصورة الأدبية الفنيّة التي تتمثل الجمال في الأسلوب القرآني، وتستبين معالم هذا الجمال وأسرار التعبير من الحرف إلى الكلمة ، ودلالات الألفاظ إلى الأسلوب، فالقرآن الكريم بتعبير الخولي " كتاب العربية الأول" وعلوم العربية أسسّت بين النصوص العربية فكان الأولى أن تتأسس من النص القرآني لغويا وبيانيا.

ومدرسة التفسير الأدبي وإن كان مقصدها الأساسي أدبي محض ،ولا يخضع لاعتبارات التأويل الرمزية والفلسفية وغيرها مما تلون به التفسير قديما ، فهي لا تقدّم ذلك بعيدا عن المقصد الأسمى للقرآن وهو هداية الناس وتحقيق مبدأ الإيمان بالله ، ملمّة ببيئته الماديّة والمعنوية التي كونت النفسية العربية والمجتمع العربي، وكيف واجه المسائل الكبرى التي شغلت الإنسانية لتحقيق تلك الهداية وذلك الإيمان" النهج الذي نافح من أجله الشيخ أمين الخولي يجعل من دراسة القرآن دراسة أدبية منهجية في ضوء الظروف الحيوية المحيطة به ، فنظم القرآن المعجز لم يكن غرضا مقصودا لذاته ،بل كان وسيلة لإصلاح الحياة البشرية فهو (فن الحياة)" (23).

إن هدف مدرسة التفسير الأدبي هو التوجه لدراسة القرآن أدبيّا وفنيّا ، واعتبار الغرض الأول من التفسير والذي أقرته مدرسة محمد عبده،وآثرت بناء منهجها عليه الاهتداء بالقرآن "ليس أول ما يعنى به

ويقصد إليه ، بل إن قبل ذلك كله هناك مقصد أسبق وغرض أبعد تشعب عنه الأغراض المختلفة سواء أكان المقصد الآخر علميا أو عمليا ، دينيا أو دنيويا ، ذلك الغرض الأبعد هو النظر في القرآن من حيث هو كتاب العربية الأكبر وأثرها الأدبي الأعظم " ([24]) .

ومعنى دراسة القرآن أدبيّا وفنيّا لا يخلع عنه كونه كتاب هداية للناس،ولا تفصل هذه الدراسة القرآن عن الحياة ، بل إن هذا الاختلاف في المقصد بين الشيخ محمد عبده والأستاذ الخولي،مرده إلى المرجعية الفكرية بين الأزهر والجامعة المصرية – حسب رأينا – وهذا الفاصل هو الذي قسم التجديد في التفسير إلى اتجاهين .

فإذا المقصد هو من يحدد توجيه التفسير في القرآن ، فمن منطلقه تأسسّت مناهج تفسيرية عديدة و غاية هذه المدرسة إنها أقرت من البداية أن القرآن الكريم كان هدفه ومقصده الأول بيانيا وأدبيا، وليست هناك أيّة دراسة تستطيع أن توفي حق القرآن الكريم غير الدرس الأدبي ،كما هو درس نصوص الأدب عامة ، بل إذا كان أدب الشعوب هو التّراث الفكري الذي تفتخر به عبر تاريخها وحاضرها، فأولى للأمة الإسلامية والعربية أن تفتخر بتراثها العربي و" كتابها الأكبر"من خلال تفسيره تفسيرا أدبيا ،و إذا " كان الأدب في عامة أمره عملا خالقا ، فإن التفسير في جملة أمره كشف عن خصائص هذا الخلق وملامحه المميزة له ، وتحديد لجملة من الطاقات التي ينفرد بها أديب عن آخر في لغته وبيانه وإحساسه بالحياة ودقة إدراكه لنواميسها .. وبين الأديب والمفسر أو بين صاحب النص والمفسر له قرابات وصلات ، فصاحب النص ينقل الحياة بألوانها المختلفة في لوحات فنية أداته في نقلها الكلمة، والمفسر ينقل مرة أخرى : الحياة والفكر"([25]).

تتميز مدرسة التفسير الأدبي بقسمات ومعارف خاصة ، ارتسمت ملامحها بوضوح في المنهج البياني عند عائشة عبد الرحمن – بنت الشاطئ – إحدى ثمرات هذه المدرسة العريقة، فهي لا تخرج فيما كتبت في التفسير أو في الدراسات القرآنية عن منهج أمين الخولي ، بل صرّحت بذلك بوضوح في مقدمة كتابها "التفسير البياني للقرآن الكريم "كان المنهج المتبع في درس التفسير — إلى نحو ربع قرن — تقليديا أثريا ، لا يتجاوز فهم النص القرآني على نحو ما كان يفعل المفسّرون من قديم .حتى جاء شيخنا الإمام الأستاذ

أمين الخولي فخرج به عن ذلك النّمط التقليدي وتناوله نصا لغويا بيانيا على منهج أصّله وتلقاه عنه تلامذته وأنا منهم ." ([26])

غير أن عائشة عبد الرحمن توسعت في المنهج على المستوى التطبيقي عكفت عليه طيلة حياتها فأخضعت النص القرآني إلى ضوابط المنهج البياني الذي أسسه الخولي وسارت عليه، وكان أبرز هذه الضوابط:التناول الموضوعي للنص القرآني ,البحث الدلالي للكلمة القرآنية، وتتبع الفهم من خلال السياق ، تجريد التفسير من بعض الآراء الإسرائيلية ، والتعامل مع أسباب النزول بما يحفظ للنص خصوصياته وتقريب الفهم ، لا من خلال إسقاطه على المناسبة .

ومن خلال هذه المحاولة الجديدة في الطرح والتناول تكون عائشة عبد الرحمن قد فتحت المجال لما يعرف بـ"النظرية القرآنية" وهو الموقف الذي يتبناه القرآن تجاه القضايا الفكرية والإنسانية في مقابل النظريات الغربية الحديثة ، ففتحت بذلك آفاق النص القرآني بأسلوب أدبي رائع متجاوزة في ذلك تعقيدات الطرح الأيديولوجي المذهبي ، والطرح الخرافي الذي نما مع كثير من التفاسير النقلية التقليدية ، وبأسلوب حواري عقلي لم تلغ القديم بل ناقشته وعارضته من النص القرآني نفسه بآلية السياق وما يتطلبه العقل الذي جاء القرآن ليخاطبه .

وفي الختام ، نود أن نشير إلى نقطة هامة هي أن مشروع التفسير الأدبي يبدو أنه لا يزال يحتاج إلى تضافر جهود الباحثين والدارسين لاستكماله ، على الرغم من ظهور بعض المحاولات في التفسير الموضوعي إلا أن الجانب الأدبي في تفسير النص القرآني لا يزال تقليديا ويفتقد إلى الأعمال الجادة التي تأخذ بالنظريات الحديثة ، ليكون المفسر لغويا ، وبلاغيا ، ونفسانيا ، وفيلسوف أفكار في آن واحد والنص القرآني الذي يحياه المفسر هو جزء من هذا الوجود وهو يتكلم بطرق مختلفة ، ومهمة المفسر أن يكتشف هذه الطرق وأن يكشف عنها ، أليس في تعبيرنا أن صورة لوحة فنية رائعة نقول عنها تنطق بالحياة ، أليس القرآن أعظم لوحة في الوجود ، فكيف نفهم نطقه ، وكيف نؤوله .

الهوامش:

1- الاتجاه العقلي في التفسير ، دراسة في قضية المجاز ، نصر حامد أبو زيد ، ص ، ط5 ، المركز الثقافي العربي الدار البيضاء ، المغرب 2003

2- دراسات في القرآن ، أحمد خليل ، ص14 ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، بيروت لبنان 1969 م

3- دائرة المعارف – مادة تفسير- أمين الخولي ، ص462 ، المجلد التاسع ،دار الشعب ،القاهرة ، مصر

4- القرآن وقضايا الإنسان ، عائشة عبد الرحمن – بنت الشاطئ - ص319 ، ط05 ، دار العلم للملايين ، بيروت ، لبنان 1982

5- التفسير القرآني واللغة الصوفية في فلسفة ابن سينا ، عاصي حسن ، ص15- 16 ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر بيروت ، لبنان

6- الظاهرة القرآنية ، مالك بن نبي ، ص58 ، ط04 ، دار الفكر ، دمشق ، سوريا 1984 م

7- القرآن وقضايا الإنسان ، بنت الشاطئ ، ص301

8- الإتقان في علوم القرآن ، جلال الدين السيوطي ،ج4 ،ص 172 ، دار المعرفة مصر

9- الظاهرة القرآنية ، مالك بن نبي ، ص 59-60

10-القرآن وقضايا الإنسان ، بنت الشاطئ ،ص 303-304

11- تفسير المنار ، الشيخ محمد رشيد رضا ، ج1 ، ط1 ، ص11، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان 1999 م

12- جمال الدين الأفغاني المفترى عليه ، محسن عبد الحميد ، ص33 ، ط01 ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، لبنان 1985 م

13- التفسير والمفسرون ، محمد حسين الذهبي ، ص523 ، ط04 ، أم القرى للطباعة والنشر، القاهرة ، مصر 1988 م

14-تفسير المنار ، محمد رشيد رضا ،ج1، ص 11 ، ط 01

15-تفسير المنار ، محمد رشيد رضا ،ج 01 ، ص25

16-الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي ، محمد البهي ، ص 175 ، دار الكتاب العربي ، القاهرة مصر

17-سورة البقرة الآية 65

18-دراسات في القرآن ،أحمد خليل ، ص 142

19-المصدر نفسه ، ص 144

20-دائرة المعارف" مادة تفسير" ، أمين الخولي ، ص429 ، المجلد التاسع ،دار الشعب ، القاهرة ، مصر بدون سنة

21-دراسات في القران ، احمد خليل ، ص 147

22-مناهج وتجديد في النحو والبلاغة والتفسير والآداب ، مطابع الطناني ، القاهرة مصر 1961م ، وهو مجموع ما كتبه في دائرة المعارف مادة تفسير والبلاغة

23-الرؤيا المقيدة ، شكري عياد ، ص173 ، ط1، الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة ، مصر 1987م

24- دائرة المعارف "مادة تفسير" ، أمين الخولي ، ص429

25- دراسات في القرآن ، أحمد خليل ، ص 11

26-التفسير البياني للقرآن الكريم ، عائشة عبد الرحمن ،ج01 ، ط08 ، دار المعارف ، القاهرة ، مصر 2004 م